دلالة الزينة الحقيقية في سورة الكهف الميزان في تفسير القرآن للطبطبائي مثالاً.

أ. د. كاظم فضيل شاهر الغريري جامعة القادسية – كلية التربية

Kathem.shaher@qu.edu.iq

ملخّص : لقد كتب كثيرون في معنى الزينة , ودلالاتها في القرآن الكريم واستنبطوا معانيها اللغويَّة والمجازيَّة وأقسامها الماديَّة والمعنويَّة واشتقاقاتها البنيويَّة , ودلالة كلّ بنيه , لكنهم لم يقفوا على مضامينها التي استوحِيتْ مِن سياقها النَّصّي واللَفظي ودلالاتها المعنويَّة ومرادفاتها التي شغلت مساحَة مِن فضائها , وكذا لم يلتفتوا إلى أضدادها ومعادِلاتها التي تُمَثّل وجهاً مهما مِمَّا يُتَّكؤُ عليه لولوج حدودها وأستكناه بواطنها , وقد يَتضَمَّنُ كُلَّ ذلك ما عُرفَ بدلالة الزينة الحقيقيَّة وبخلافها ما عُرف بدلالة الزينة غير الحقيقية مَّما نناقشهُ ونكشف الستار عن معانيه في وجهي الدلالة ألمذكورة في سورة الكهف التي وجهها العلامة الطبطبائي وشرح مضامينها في كتابه (الميزان في تفسير القرآن), واللهُ الموفق .

الكلمات المفتاحَّية : الزينة , الميزان , الحقيقيَّة , غير الحقيقيَّة

Abstract:

Many people have written about the meaning of adornment and its connotations in the Holy Quran and discovered its linguistic and figurative meanings, its material and lyrical sections, its synthetic derivatives and the significance of each formula, but they did not stand on its contents, which were discovered from its textual and silver context, its moral connotations and synonyms that occupied a space of its space, as well as did not pay attention to its opposites and equations instead of the sign of the decoration that is not the truth that we are discussing and revealing the cover, there is a meaning in the two faces of the sign mentioned in Surah Al-Kahf, which was directed by the scientist Al-Tabtabai and explained its meanings in his book (the balance in the interpretation of the Qur'an)and God is the best ..Ornamental keywords ..Libra ..The real one ..Not real

Key words .. Decorations ..Libra ...The real one ..The Unreal

أولاً: معنى الزينة ودلالاتها الأصلية

قال الأزهري ((الزَّينة بالكسر إسم جامعٌ لكُلّ ما يُتَزَيَّنُ به))(١) , ومِن مشتقات بنيتها الفعلية عند صاحب اللسان قوله ((وتَزَيَّنت الأرضُ بالنبات وأزّيَّنَت وازدانَت ازدياناً , وتَزَيَّنتَ و أَزَّيَّنتْ و وأزْيَأَنَّتْ و أزينتْ : أي حَسُنت وبَهَجَتْ (٢) وقد قرأ الأعرجُ بهذه الأخيرة (٣) , وفي الحديث: ((زَيَّنوُ القرآنَ بإصواتِكم)) (٤) , وَيدِلُّ على ما يُزَيَّنُ من الترتيل والتدبير والإعراب . (٥)

وزَانَه يُزَينهُ زيناً وزائنٌ مَزين: حَسّنَهُ وجمّلَهُ (٦) و الزَّيْنُ و أمرٌ زائنَ معروف عند ابن دريد (٧) يعني شائع بين الناس , ويظهر أنَّه يُشير إلى مَعنى الزينة الذي عُرف عند العلماء وهو أَنَّ مآله إلى الحسن (٨) . فأصلُه عند ابن فارس يدل على حسن الشيء وتحسينه (٩) . وكَلّ ماذكره اللغويون في معنى الزينة في هذا الموضع يتجه بها إلى الدلالة الماديَّةَ لهذه المفردة إلاّ قول الازهري إنَّه إسم جامع لِكُلّ ما يُتزيَّنُ به ففيه ملحظان الأَول إنَّه يحتمَل الدلالة المعنويَّة للزينة وهو واضح بأدنى تأمل , والثاني أنَّ الازهري قد يشير إلى الأصل اللغوي للزينة .

والواقع القرآني لهذه المفردة يجاوز ما ذكره اللغويون فآيات منهُ لا تعدو المعنى الماديَّ نحو قوله تعالى ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦ ﴾ (١٠) وقوله تعالى ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٧٩﴾ (١١) و اخرى لا تجاوز الدلالة المعنونة نحو قوله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢﴾ (١٢) وقوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ ﴾ (١٣)

ثانياً : الزينة في القران الكريم :

ذكرنا أنَ القران قد ذكر الزينة بوجهيها المادي والمعنوي وَقِيلَ هنا أنَ القران الكريم ((استعمل الزينة بصيغ فعلية واسمية وبدلالات حقيقية مادية وأُخرى مجازَية معنوية , وقد كانت هذه الزينة – دلالياً – تسير في أكثر من اتجاه وحد , فبعضُها كان يتحَدث عن ما يمكن ان يتخذَ زينةً من دون أن يتعدى ذلك للحديث عن ذمَها أو مدحها , وبعض الآيات كانت تسير باتجاه الزينة المحمودة ماديه كانت أو معنَوية والأعم الأغلب كان ينحو بالزينة منحى سلبياً غير محمود لا تؤمن عواقبه)) (١٤)

ولنا على هذا القول ملحظ مهم هو أَنَّه نظر إلى معنى الزينة على وفق الاستعمال والِسياق الذي وقعت فيه , والراجح عندنا أنَ السبيل الانجح أنْ يُرجع إلى أصل الزينة , وأصل الزينة عند الازهري ((اسم

جامع لكُلّ ما يُتَزين به)) (١٥) كلّ ما يُتَزين به حُسنٌ وجميلٌ وبهيجٌ على وفق ما أصّلهُ اللغويون في هذا الموضع (١٦)والحسنُ عبد ابن فارس : ((أصل واحد , فالحسن ضد القبيح ... والمحاسن من الانسانِ وغيره ضد المساوِئ)) (١٧) وكذا الجميل (١٨ ١٨) والبهيج (١٩) إذ إن الزين هو الجميل وهو البهيج كما ذُكر.

نعم الزينة جميلة وحسنة وبهيجة في أصلها وهذا هو الأهم في هذا الموضع فأما الاستعمال و السياق فلربما عُدِلَ بِهما بكثير من الألفاظ والتراكيب عن معناها الأصل وأسّها الذي وُضِعَتْ مِن أجله إلى معانٍ مخالفةٍ ومضادةٍ , وسيتضحُ الأمر بصورةٍ أجلى وأوضح حين نقف على مفهوم الزينة الحقيقية والزينة غير الحقيقية من سورة الكهف في تفسير الميزان للعلامة الطبطبائي وهو ما سيتكفله المبحث اللاحق بإذنه تعالى

ثالثاً : الزينة الحقيقيّة والزينة غير الحقيقيّة من سورة الكهف في تفسير الميزان للطبطبائي

خَلُص صاحب (مفردات الفاظ القران) إلى أن معنى الدلالة الحقيقية ((ما لا يشين الانسان في شيء من أحواله لا في الدنيا , ولا في الأخرة , فأما ما يزينه في حالة دون حالة فهو مِن وجهٍ شين , والزينة بالقول المجمل ثلاث : زينةُ نفسية كالعلم والاعتقادات الحسية , وزينة بدنية كالقوةِ وطول القامةِ , وزينة خارجية كالمال والجاه كقوله ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾ (٢٠) فهو من الزينة النفسية وقوله ﴿ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ) (٢١) (فقد حُمل على الزينة الخارجية) (٢٢) وذكر أن سببَ نزول الآية الأخيرة (أن قوماً كانوا يطوفون بالبيت عُراة فنهُوا عن ذلك بهذه الآية) (٢٣)ويرى بعضهم أنَ الزينة المذكورة هنا هي الكرم المذكور في الآية ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ (٢٤) .

وعليها قول الشاعر : وزينةُ العاقل حُسنُ الأدب .(٢٥)

ويذكر الراغب نوعاً ثالثاً للزينة سماه الزينة الدنيوية من المال والاثاث والجاه وعليها قوله تعالى ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ ﴾ (٢٦ ٢٦) والزينة قد تُنْسبَ في مواضع إليه تعالى وفي أخرى إلى الشيطان وفي مواضع ذكرها تُميز مُسمَّى فاعلها . (٢٧)

والراجح أنَ الزينة التي نسبها تعالى إلى غيره أو إلى الشيطان ليست من الزينة الحقيقية بل مِن نوع الشيء الذي ذُكر في مُفتتح النص الذي بدأنا به هذا المبحث . والشينْ خلاف الزين , قال الازهري :((سَمعْتُ صبيًّاً من بني عُقيل يقول لآخر: وجهي زينٌ ووجهُك شينٌ , أراد أنَّه صبيح الوجه وإنَّ الآخَر قَبيحه))(٢٨)

فللزينةِ على ذلك وجهان : وجهٌ زينٌ ووجهٌ شينٌ وهو ما اثبتناه في مجمل ما قيل في هذا المبحث وقد أطبق عليه اللغويون و أهل معاني القرآن وتفسيره .

فوجه الشين ليس من الزين أو الزينة في شيء بل هو خلافها وضدُّها , والدلالة الحقيقية تجري - بلا شك – على الوجه الأوَّل , وهي الدلالة التي سَنَّها الله تعالى لعباده قولاً وفعلاً وظاهراً أو باطناً وبخلاف الشين الذي تخلف عن هذه السُّنّة و إنْ جاء بلفظ الزين وسَلّطهُ الله تعالى فتنةً وابتلاءً كما سيتضح في قادم أسطر هذا المبحث حيث سنقف على معاني الآيات الاربع من سورة الكهف مِمّا وردت فيها الفاظ الزينة وما يتبعها من ألفاظ جاءت على سبيل الزينة وسلكت مسالكها وإنْ لم ترد بلفظها وهو ما رأيناه واضحاً في آياتٍ من الذكر الحكيم.

ففي قولهُ تعالى : ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٤٧﴾ (٢٩) لا شكَّ أنَّه تعالى اراد ببسطه الجسم والعلم الزينة التي أتحف طالوت بها والزينة هنا زينتان : مادية أو بدنية تمثلت في قوة الجسم ومعنويَّة نفسية تمثلت بسّعة العلم . وعلى ذلك يمكن أن تجريَ كثيرٌ مِن الآيات التي جاءت على مستوى الآية الكريمة , فهناك الكثير من الآيات الكريمات التي تحمل دلالة الزينة ضِمناً ومنها قوله تعالى :

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٣١﴾ (٣٠) .

ففي هذه الآية مِنْ سورة الكهف تجلَّتْ أنواع من الزينة لم تذكر بلفظها ولكنها زينةٌ حقيقيَّة فمصدرها الباري سبحانه وتعالى ومكانها الجنَّة , وقلنا حقيقيَّة ؛ لأنها مِن نعم الله التي فضَّلها وقدَّمها وخصَّها بالمؤمنين المخلصين الذين اختار لهم المكان الذي جعله عاقبة طيبة ميمونة لهم ولِامثالهم وجزاء أوفى للصالحين والمتقين الذين سلكوا سبيله واتبعوا رضوانه .ولكنها قد تكون زبرجاً وزخرفاً وشيناً لطائفة أخرى لم تسلك السبيل الذي سلكته الأولى فكانت زينة غير حقيقية كانت عاقبتها وبالاً على من اصطحبها على غير رضا الله وقبوله ,قال تعالى : ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾ (٣١) .

فهذا زخرف وزبرج عاقبته سيئة ووبالٌ على أصحابهِ فهي زينة غير حَقِيقيَّة وهي شين وليس زينا لمن اصطحَبها .

فالزينة في الآيتين تفهما ضمناً من السياق , ولم تُذكرا لفظاً , لكنها حاضرةٌ في كُلّ مظاهر النعيم أو ظاهرة في مظاهر الجحيم , والزينة في الآية الاولى جاوزت الجهة الحسية فشملت الرفعة والكرامة والجمال وعَبَّرَت عن إلطاف الله تعالى بعباده المتقين , وإذا كانت زينة لأهل الدنيا في مناسبات محدودة زمناً فإنها زينة دائمة مستمرة لأهل الجنة عبرَت عن رضا الباري تعالى عنهم والزينة في الآية الثانية بخلاف الاولى فهي زخرف وزبرج في الدنيا وإن جمُلتْ وحَسُنت في أعين اصحابها وجرَتهم إلى جُب النار وعذابها الدائم.

ولعل من أهم مظاهر الزينة الضمنيَّة في سورة الكهف ما جرى لأصحاب الجنتين (٣٢) إذ تتضمن هذه الآيات مثلين يوضحان حقيقة ما يمتلكه الإنسان في الدنيا من أموال وأولاد وهي زينة الدنيا وزخارفها التي تَغرُ الإنسان وهي سريعة الفناء والزوال , إذ تتزين بها للإنسان فتوقعه في اللهو وتُنسيه ذكرُ الله تعالى وتوهمه بالخلود فيغلب على ذهنه أنه يمتلكها ويقدر عليها ثم إذا طاف عليها طائف منه سبحانه وتعالى بادت وفُنيت ولم يبق منها للإنسان إلا حِلمٌ نائم وأمنية كاذبَةٌ ((فالآيات ترجع الكلام إلى توضيح ما أشار سبحانه إليه في قول ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ٧ الى قوله ﴿صَعِيدًا جُرُزًا ٨ ﴾من الحقيقة)) . (٣٣) ويمكن أن نقسم الزينة في هذه الآيات إلى قسمين الاولى : الزينة غير الحقيقية أو ما سميناه بالزخرف والزبرج أو ما دعوناه (بالشين نتيجةً) و هو ما جرى للأول من الصاحبين الذي غرَتهُ الحياة الدنيا فَسَلَمَ لها ونظر إلى نفسه على أنَهُ مُطلق التصرف فيما خوله تعالى مِن جَنَتين فيهما ما لذَ وطابَ وما خولهُ مِن مالٍ وبنين , اعتقد أنهُ مالك لها ونَسِي أن الله تعالى هو الذي مَلَّكه و هو المالك وهذا هو الحقُ , ((والذي سخره الله له وسلطه عليه مِن زينة الحياة الدنيا التي هي فتنة وبلاءٌ يُمتَحَنُ بها الإنسان ليُميزَ الله الخبيث مِن الطيب بل اجتذبت الزينة نفسه إليها فحسب أنهَ منقطع عن رَبه مستقِلٌ بنفسه فيما يملكه وأنَ التأثير كله عند الأسباب الظاهرية التي سُخرت له فنسي الله سبحانه وركن الى الاسباب وهذا هو الشرك))(٣٤)

والثاني : الزينة الحقيقية مِما لا يَشين في حالٍ و هو ما جرى للثاني مِن الصاحبين الذي لم يتعلق بهذه الزينة الفانية الفاتنة ولم يُعرض عن ذكرِ رَبهِ ولم ينقطعُ إلى نفسهِ وإلى الزينة الدنيوية التي بين يديه ولا إلى الأسباب الظاهريَة التي أحاطت به خلاف الأول الذي دعتهُ جاذبية الزينات والزخارف إلى أن يجمد عليها ولم يلتفت إلى فنائها ولم تقرعُه قارعة العقل الفطري أنَ الدهر سيغدر بهِ والأسباب ستخذله وحياته

المؤجلة ستصل أجلها , فمنعه اتباع الهوى وطول الأمل والإصغاء لها و الالتفات إليها بخلاف فعل الثاني . (٣٥)

وَبَعدُ سنقف على الآيات الثلاث مِن سورة الكهف التي ورد فيها لفظ الزينة وهي :

١- قوله تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ٧ ﴾

٢- قوله تعالى ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ٢٨ ﴾

٣- قوله تعالى ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ٤٦ ﴾

هذه الآيات صُرِّحَ فيها بلفظ الزينة , ففي الآية الأولى ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ٨ ﴾ والتي ذَيلَها بالآية الثامنة بيانُ عَجيب وخلاصة لطيفة لما تتضمنه جملة آيات السورة , إذ إنَّ حياة الإنسان على الأرض نوع تسخير إلهي حيث أسكنهم سبحانهُ وتعالى الأرض وجعل ما عليها زينة يَفتتن بها الناظر فتتعلق بها نفسُه فَيُبتلى , لمعرفة أيّهم احسنُ عملاً , ثم إنهُ تعالى لجاعِلُ هذا الذي زُينَ لهم بعينه كالصعيد الجُرز الذي ليس فيه نبت ولا شيء فيما تَرغبُ فيه النفس , والزينة في الآيتين : الأمر الجميل الذي ضُمَّ إلى آخر فأفاده حسناً يُرغبُ إليه مِن أجله , فإذا انقضى الأجل ومكثهم على الأرض تحقيق ما أراده تعالى مِن الابتلاء و الامتحان سلب ما بينهم وبين على الأرض مِن العُلقة و محى هذا الجمال وتلك الزينة فصار كالصعيد الجُرز ثم نُوديَ فيهم بالرحيل وهم فرادى كما خلقوا أوَلَ مَرَة . (٣٦)

قال الزمخشري : ((أي جعلنا ما على وجه الأرض من صنوف النبات والشجر والزروع والثمار والأنهار والمعادن وغير ذلك مِمَّا هو سبب لحسن منظر الأرض ولذَّتها زينة لها , للابتلاء , لا للدوام , ولا ليستَبقيه احد, أيّهم أحسنُ عملاً , أي : أَزهد فيها , واشكر للنعم مع الاجتهاد في العبادة)) (٣٧) , وتظهر أنَّ الزينة هنا تشَمل كلَّ مظاهر الزخرف الطبيعي وغايتها الابتلاء والفتنة لا الثبات والبقاء , والفتنة هنا هي معرْفَة مَنْ يُحسنُ العمل بالزهد في الزينة مع شكره تعالى وحسن العبادة , فالنبات والشجر والزروع والثمار والمعادن على ذلك زخرف و زبرج فانٍ , وزينة غير حقيقية لانقطاع سبيلها بفناء الأرض وانتهاء أجلها وتحولها إلى تراب لا نبات فيه .ومضمون هذه الآية الكريمة يشبه إلى حَدّ

بعيد قوله تعالى : ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥ ﴾ (٣٨) .

فهو تعالى – كما يرى الزمخشري – ((شبَّه الحياةَ الدنيا وزينتها بما يَنبت بالماء من نبات الأرض مِمَّا يَروق ويُعْجب , ثم لا يلبث أنْ يهيج ويبيس , و يتغير , ويصير هشيما تذروه الرياح)) (٣٩)

ولا يبعد كلام الرازي عن قول الزمخشري إلا أنه يُضيفُ أنَّ الزينة لا تقتصر على الابتلاء بل أيضاً تبرُزُ الإظهار الكامل لجمال الصنعة الإلهّية (٤٠) .

وتزّيين الشيء عند ابن عاشور ما يزيد الشيءَ حسناً فوق حسنه الذاتي وكُلُّ ما ظهر الأرض من موجودات جميَلة زينةٌ لها قال : ((ويُراد بالزينة هنا ما يُحسِنُ مَنظر الأرض ويجعلها محببة إلى النفوس , والحكمة من هذه الزينة امتحان الناس في عبادة الله وشكره وعدم الاغترار بزينة الدنيا الزائلة (٤١) .

وجملة ما يُراد في الآية الكريمة أنَّ هذه الزينة المجعولة زينة حقيقيةٌ بلحاظ صدورها من الباري سبحانه وتعالى ولكنَّه أوجدها لِلابتلاء ولإمتحان للناس جميعاً غَنيّهم و فَقيرُهم ومؤمِنِهم وكافرهم , وكبيرهم وصغيرِهم , ولكنها زينة منقطعة مؤقّته ستنتهي يوماً , لأّن الحياةَ ستنتهي والمراد قطع رابطة التعلق بين الإنسان وامتعة الحياة الدُنيا فما على الارض بإعادة مِمَّا عليها مِن زينة تراباً مستوياً بالأرض بجعله صعيداً أملس لا نبات فيه ولا شيء عليه (٤٢) , ونفهم من كلّ ذلك أنَ الزينة الحقيقية قد تكون دائمة ثابتة أو مؤقتة زائلة . والأصل أنها حُسنٌ وجمال وبهجة كما مثلنا في أكثر الآيات المذكورة في هذا الموضع وكما في قوله تعالى ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦ ﴾ فالآية انعطاف إلى بدء الكلام في الآية ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ٧ ﴾, فالمال والبنون و إن تعلّقت بها القلوبُ وتاقت إليها النفوس متوقعةً منها الانقطاع لكنها زينة سريعة زائلة غرّارة لا يسعها أن تُثيب أو تنفع في كُلّ ما يُراد ولا أن تُصْدِقَ صاحبها في جميع ما يأمله ويتمناه , فهي في هذا الحال زخرف و زبرج و زينات غير حقيقية فهي بلبوسها هذا مِن الشين لا من الزين , لآنها زانت صاحبها في حالٍ دون أخرى , فأما الباقيات الصالحات فهي الزينة الحقيقية في الآيتين على كُل حال , فالأعمال الصالحة محفوظة عند الله وهي عنده تعالى خَيرٌ ثواباً , لأنه تعالى يجازي الإنسان بها خيرَ الجزاء , وخيراً أملاً , لأنَ ما يؤمل بها مِن رحمته سُبحانه وكرامته ميسورٌ , فهي أصدق أملاً من زينات الدنيا و زخارفها التي لا تفي للإنسان في اكثر ما تعد و ما صدق منها غارٌ خداع و الآمال بها كاذبة على الاغلب (٤٣) ويمكننا أن ندرك بلا أدنى تأمل أنَ المال والبنين يمكن أن تكون مِن هذه الزينة الحقيقية إذا تَعلقت بالعمل الصالح وكانت صالحة فهي باقيات صالحات ,

لإنها لم تتخلف عن الإرادة الإلهية . فالباقيات الصالحات ما تعلقت به زينات الحياة الدنيا وارتقت بها إلى قبول الباري تعالى و رضاه على وجه الثبوت و إلا فهي زينة زائلة أو باطلة كمثل نبات الأرض المثل الثاني الذي ضُرب لتمثيل الدنيا بما يُقارنها من الزينة السريعة الزوال . فأية (المال والبنون) ذَيلت الآية التي سبقتها ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمًا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥ ﴾ (٤٤) فأية (المال والبنون) بمنزلة النتيجة لتلك الآية . وقوله تعالى ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ ﴾ (٤٥)

صورة للصحبة الصالحة والنأي عن زينة الدنيا التي قد تُلهي عن طاعة الله , وتلك هي الزينة الحقيقية الدائمة و الثابتة التي لا تجري على حالٍ دون حالٍ أخرى فتُحسب على الشين لا على الزين . فالزينة حينما تشغل الانسان عن ذكر الله تتحول إلى فتنة كما ذَكَرَ سبحانهُ في مشهد بليغ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤ ﴾ (٤٦ ٤٦) وقوله تعالى ﴿ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ ﴾, يعني لا تجاوزهم ولا تتركهم تريد زينة الحياة الدنيا , فَمن هؤلاء؟ أنهم الذين يدعون رَبهم بالغداة والعشي متلبسين بزينة الايمان والتقوى لا بزخارف الدنيا و زبرجها التي تدعو إلى هوى النفس وتُوقع في غَفلة القلب انتهاءً بأمر الإفراط في التعلق بهذه الزينات والزخارف الذي يؤدي إلى مدارك الهلاك و دخول النار ولاتَ حينَ مَندم .

رابعاً : خلاصة : -

إنَّ موضوع الزينة يكاد يكون عنواناً ومفتاحاً لموضوعات سورة الكهف وَ فِتنها , فقد اشتملتْ السورة على أربع فتن منها هي على التوالي في السورة المباركة

١- فتنة الدين التي تمثّلت بقصة اصحاب الكهف الآيات ٩-٢٦

٢- فتنة المال التي تمثّلت بصاحبي الجنتين الآيات ٣٢-٤٦

٣- فتنة العلم التي تمثّلت بقصة موسى والخضر (عليهما السلام) الآيات ٦٠-٨٢

٤- فتنة السلطة التي تمثّلت بقصة ذي القرنين الآيات ٨٣-١٠٢

فابتلاء أصحاب الكهف فتنة في الدين , وواضح أنَّ هؤلاء الفتية تمسكوا بزينة حقيقية معنويَّة ونفسيَّة هي فتنة الدين التي تمثَّلت بالتعلق بالتوحيد والتقوى والورع واعتزال المشركين , فهم فتية آمنوا بربهم وزادهم هدى فكان تَعلُّقهم بالرب أنَّهم سألوه من لدنه رحمة بقولهم : ((آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)) فهذه زينتهم الحقيقيَّة التي وصلت بهم إلى شاطئ الأمان والاطمئنان بخلاف مجتمعهم المشرك الذي يتمسك بزينة الدنيا الفانية وزخارفها فهم قد ادركوا شواطئ الزين والهداية , وركن الباقون الى الشين والغواية والزينة الفانية وزخارفها الغارَّة .

وقصة اصحاب الجنتين غير بعيد عن صفوة ما قيل هنا , اذ تمسّك أكثرُهما مالاً واعزَّ نفراً بزخارف الدنيا وشينها فكانت عاقبته نكالاً عليه وعَضَّ اصابع الندم على ما فرط في جنب الله بخلاف صاحبه المؤمِن الذي سلك طريق الهداية ونأى بنفسه عن الشين وجعل من زينته التي وهبها الله تعالى إليه على سبيل الابتلاء والاختبار جعلها تؤول إلى التقوى والعمل الصالح ورضا الرب تعالى وقبوله .

وفتنة العلم بين موسى والخضر (عليهما السلام) خير دليل على الزينة الحقيقيَّة الربانيَّة إذ إنَّها هِبَة استحقاها (عليهما السلام) لصبرهما وتحملهما المشاق , والعلم زينة وزينته التي وُهِبت لموسى والخضر تشبه ما حصل لطالوت الذي زاده سبحانه وتعالى بسطة في العلم والجسم .

اما زينة ذي القرنين فأكثر مِن أن تحصى , إذ آتاه الله تعالى مِن كُلّ شيء سببا وهذه زينة حقيقية وهبة ربانية مَنّ بها تعالى على هذا العبد الصالح , ورفع بركتها عن الأقوام الذي خاصموه ولا سيما يأجوج ومأجوج الذين اتخذوا الشين طريقاً وجانبوا الزينة الحقيقية وستؤول بهم الأهوال وركوب المعاصي إلى مهاوي النار ((وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا)) .

والسورة إجمالاً تشير إلى توحيد الله وموضوع الإيمان والعمل الصالح وهذا مضمون مُفتتح السورة (٤٧) وختامها (٤٨) , واسمها (الكهف) فيه دلالة رمزيَّة على الملاذ الرباني الأيماني الذي يعصم من هذه الفتن , وتظهر الوحدة الموضوعية بارزة قد بُنيت على قصد الهداية والتعلق به تعالى والتمسك بالإيمان , والزينة الحقيقية التي أرادها سبحانه وتعالى دعوة للعمل الصالح والإيمان الخالص والتخلص من الفتن

الهوامش

١) تهذيب اللغة للأزهري ١٣/ ٢٥٥ (زين) .

٢) لسان العرب لابن منظور ١٣ / ٢٠٢ (زين) .

٣) المحتسب لابن جني ٤٣١/١ .

٤) النهاية لابن الاثير ٢ /٣٢٥ (زين) .

٥) يُنظر : المصدر نفسه ٢ / ٣٢٦ (زين) .

[٦]) يُنظر المعجم العربي الاساسي / ٥٩٩ (زين).

[٧]) يُنظر: الجمهرة ٣ / ٢٢ (زين) .

[٨]) التهذيب ١٣ /٢٥٥ (زين) .

[٩]) المقاييس / ٤٦٧ (زين) .

[١٠]) الصافات / ٦ .

[١١]) القصص / ٧٩ و يُنظر الآيات طه / ٨٧ وفصلت / ١٢ والنور / ٣١ .....الخ .

[١٢]) الأنعام / ١٢٢ .

[١٣]) غافر / ٣٧ و يُنظر الآيات : الانعام / ٤٣ و الانفال / ٤٨ و النمل / ٢٤ .... الخ .

[١٤]) ألفاظ الزينة في القران الكريم , دراسة في العدول الدلالي , بحث مقدم إلى مجلة المصباح التابعة للعتبة الحسينية المقدسة للدكتور عقيل عكموش / ٣٠٤ .

[١٥]) التهذيب ١٣ / ٢٥٥ (زين) .

[١٦]) يُنظر: المقاييس / ٤٦٧ واللسان ١٣ / ٢٠٢ (زين) .

[١٧]) المقاييس / ٢٦٢ (حسُن) .

[١٨]) المصدر نفسه / ٢٥٥ (جمل) .

[١٩]) نفسه / ١٥٦ (بهج) .

[٢٠]) الحجرات / ٧ .

[٢١]) الأعراف / ٣٢ .

[٢٢]) المفردات / ٣٨٨ , ٣٨٩ (زين).

[٢٣]) المصدر نفسه / ٣٨٩ والحديث في الدر المنثور ٣ / ٤٣٩ (زين) .

[٢٤]) نفسه والآية ١٣ من الحجرات .

[٢٥]) هذا عجز بيت وشطره : لُكلَ شيء حسن زينةٌ . وهو في المفردات / ٣٨٩ والبصائر ٣ / ١٥٧ و معجم الأُدباء ١ / ١٧٢ .

[٢٦]) القصص / ٧٩ و يُنظر المفردات / ٣٨٩ (زين) .

[٢٧]) يُنظر: المفردات / ٣٨٩ .

[٢٨]) اللسان ١٣ / ٢٠١ و يُنظر التهذيب ١٣ / ٢٥٥ (زين) .

[٢٩]) البقرة / ٢٤٧ .

[٣٠]) الكهف / ٣١ .

[٣١]) التوبة / ٣٤ , ٣٥ .

[٣٢]) الكهف / الآيات من ٣٢ إلى ٤٦ .

[٣٣]) يُنظر: الميزان في تفسير القران ١٣ / ٣٠٤ .

[٣٤]) الميزان ١٣ / ٣٠٥ , ٣٠٦ .

[٣٥]) المصدر نفسه ١٣ / ٣٠٧ ـ ٣٠٩ .

[٣٦]) نفسه ١٣ / ٢٣٧ , ٢٣٨ .

[٣٧]) الكشاف للزمخشري ٢ / ٣٩٦ , ٣٩٧ .

[٣٨]) الكهف / ٤٥ .

[٣٩]) الكشاف ٢ / ٤٠٠ .

[٤٠]) التفسير الكبير , للفخر الرازي, ٢١ / ١٢٩ - ١٣٠ .

[٤١]) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٦ / ٢٨٩ , ٢٩٠ .

[٤٢]) يُنظر: الميزان ١٣ / ٢٣٨ .

[٤٣]) الميزان ١٣ / ٣١٥ .

[٤٤]) الكهف / ٤٥ .

[٤٥]) الكهف / ٢٨ .

[٤٦]) يونس / ٢٤ .

[٤٧]) الكهف / ١ – ٨ .

[٤٨]) الكهف الآيات / ١٠٣ – ١١٠ .

المصادر

القرآن الكريم

١- ابن الأثير , مجد الدين , النهاية في غريب الحديث والأثر , ط١, تح: طاهر احمد الزاوي ومحمود محمد الطّناحي , انتشارات دار التفسير, ايران , قم .

٢- ابن جنّي , ابو الفتح , المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها , تح : محمد عبد القادر عطا , ط١, دار الكتب العلمية ١٤١٩ هـ -١٩٩٨ م , بيروت , لبنان .

٣- الحموي , ياقوت , معجم الأدباء , إرشاد الأريب الى معرفة الأديب , تح , احسان عباس , دار الغرب الاسلامي , ١٩٩٣ ..

٤- ابن دُريد , أبو بكر , جمهرة اللغة, ط١, دار صادر , مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية الكائنة بحيدر آباد الدكن , ١٣٤٥ هـ .

٥- الرازي , الفخر , التفسير الكبير, تح : عبد الرحمن عميرة , دار احياء التراث العربي .

٦- الأصفهاني , الراغب , مفردات الفاظ القرآن , تح: صفوان عدنان داوودي , ط٦ , ذوي القربى , ١٤٣١هـ - ١٣٨٨ هـ .ش, ايران, قم .

٧- الازهري , أبو منصور , تح عبد السلام محمد هارون , المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر , د.ت .

٨- الزمخشري , جار الله , الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل , تح: عبد الرزاق المهدي , دار إحياء التراث العربي , بيروت .

٩- السيوطي , جلال الدين , الدر المنثور في التفسير المأثور , دار الفكر , بيروت .

١٠- الطبطبائي , محمد حسين , الميزان في تفسير القرآن , منشورات الأعلمي للمطبوعات , بيروت لبنان

١١- ابن عاشور , محمد الطاهر , الدار التونسية للنشر .

١٢- عقيل , عكموش , ألفاظ القرآن الكريم , دراسة في العدول الدلالي , مجلة المصباح , العتبة الحسينية المقدسة , العدد الثالث عشر , ربيع (٢٠١٣م-١٤٣٤ هـ) .

١٣- ابن فارس , أبو الحسين , معجم المقاييس في اللغة ,تح ,شهاب الدين أبي عمرو, دار الفكر للطباعة والنشر , بيروت, لبنان .

١٤- الفيروز آبادي , مجد الدين , القاموس المحيط , بصائر ذوي التعبير في لطائف الكتاب العزيز , تح : محمد علي النجار , المكتبة العلمية .

١٥- لاروس , المعجم العربي الاساسي , جماعة من كبار اللغويين , المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

١٦ - ابن منظور , محمد بن مكرم , لسان العرب , , دار صادر , بيروت .